مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

المعايير الأساسية فى تصنيف المعارف الإنسانية

• الدكتور عمر الطويبى •

أهمية الموضوع

يتناول هذا البحث مناقشة لموضوع يعتبر حجر الاساس فى التوجه العلمى لكل من اختار الاشتغال بالمعرفة والتعلم سواء كان طالبا او باحثا او معلما .. ذلك انه بدون ان يتعرف الفرد على نوع المعرفة التى يختص بها من حيث موضوعها وطرق البحث فيها فإنه سيكون قاصرا الى حد كبير فى دراساته وتحليلاته ، وعاجزا بالتالى عن الاستفادة من المعلومات التى تتوفر له .

إننا كثيرا ما نسمع عبارات مثل « **علمى** » و « **أدبى** » و « **علوم طبيعية** » و « **علوم انسانية** » و « **علوم صحيحة** » و « **أدبيات** » و « **الأقسام العلمية** » و « **الأقسام الأدبية** » تتردد داخل قاعات الدراسة وخارجها فى المعاهد والثانويات والجامعات بطريقة تشير الى أن هناك غموضا فى فمهمها واستخدامها .. ولا يتوقف سوء الاستخدام هذا على الطالب فقط ، بل يتعداه الى عدد لا بأس به من المدرسين والاساتذة .. واذا كان الاساتذة انفسهم يقعون فى خطأ فهم واستيعاب وتسمية ما يشتغلون به من مواضيع ، فإن تقدير الغموض الذى يعيش فيه الطلاب مسألة لا تحتاج الى برهان ولا شك ان هذا الغموض يمنعهم من تقدير قيمة الدروس ، وبالتالى لايعطونها ما تحتاجه من وقت وجهد لاستيعابها وتوظيفها فى حياتهم .

ويهدف هذا البحث الى عرض للمعايير التى يتم على ضوئها تصنيف ما يتوفر للانسان من معارف حتى اليوم ، وذلك حتى يتخذها الانسان فى حسبانه عند تعامله مع اى نوع من انواع المعرفة مكتوبة او مسموعة باكبر قدر من النجاح .

محور التصنيف ومعاييره :

إن المحور الذى تدور عليه كل المقاييس التى نستخدمها فى تصنيف هذا النوع من المعرفة او ذاك هو محور العلم او العلمية ؛ أى هل أن ذلك النوع من المعرفة علم أو ليس بعلم . فإذا كان الحكم على هذه المعرفة بانها علم ، فان القضية فى القياس تنتقل الى مستوى آخر بعد ذلك وهو تحديد هوية ذلك العلم بين العلوم . أما إذا كان الرأى بأن تلك المعرفة ليست علما ، فإن الامر يتطلب عندئذ وضع تلك المعرفة فى مكانها الصحيح بين الدراسات الادبية كما سيتضح لنا من هذا البحث .

« والعلم » مفهوم يعكس أسلوبا من التفكير ، او طريقا من طرق التعامل مع المتغيرات الواقعية .. فالعلم بهذا المعنى عادة او سلوك معين نتبعه بكل دقة فى فهمنا للظواهر الحياتية .. وعليه فان كلمة « العلم » لا تصف المحتوى CONTENT من الحقائق التى تتكدس فى مجال معين من المعرفة ، بل تصف الاسلوب الدقيق PROCESS الذى يتبعه الباحث فى جمع البيانات وتحليلها واستخلاص الحقائق منها .

« فالعلم » هو تلك الدراسة المنظمة لتحديد الكيفية التى ترتبط بها احداث او معطيات معينة باحداث أو معطيات معينة اخرى .. أى أن العلم يسعى الى الحصول على اجابات محددة بشأن ماذا يفعل ماذا ؟ وكيف يحدث ذلك الفعل ؟ ومتى واين يحدث ذلك الفعل ؟

وهكذا يتضح ان مفهوم « العلم» مشتق من طريق معينة من التفكير والمعالجة نسميها الطريقة العلمية THE SCIENTIFIC METHOD وليس مشتقا من موضوع واحد او أكثر THE SUPGECT MATTER من المواضيع التى يبحث فيها العلم .

وتتكون الطريقة العلمية من الخطوات المنطقية المعروفة الآتية : ـ

١ ـ الاحساس بالمشكلة ، اى الشعور بأن هناك قضية تستحق البحث والدراسة .
٢ ـ وضع فرض او اكثر لتفسير تلك المشكلة .
٣ ـ جمع المعلومات والبيانات المتعلقة بالمشكلة وما يتصل بها من عوامل .
٤ ـ تحليل تلك المعلومات واستنتاج النتائج منها .
٥ ـ تقييم صحة الفرض او الفروض التى سبق وضعها على ضوء تحليل المعلومات ومانتج عنها من استنتاجات وهذا يقود الى القبول بصحة الفرض او رفضه .

٦ ـ وسواء تم قبول الفرض او رفضه فان الموقف سيؤدى الى إثارة « تساؤلات جديدة ، مما يضع امام المشتغلين بالعلم تأملات وقضايا تستحق الانتباه لها والانشغال بها .

وهذا هو السبب الذي جعل نار البحث عن الحقيقة لهيباً مستمراً يحرك أحاسيس العلماء وعقولهم منذ أن سأل الانسان الأول نفسه مستغرباً «ما هذا؟» ولن يتوقف العلم أو ينحرف عن طريق مجراه ما دامت الدنيا قائمة.

وعليه فقد تبين لنا أن العلم كمفهوم وأسلوب في التفكير والعمل يتخذ خاصيته المميزة من الطريقة التي اختارها في مواجهة القضايا، وهي «**الطريقة العلمية**». كما أن هناك وجهاً آخر للخاصية المميزة للعلم تتمثل في الوظائف التي يتصدر العلم في أي مجال إلى تحقيقها وهذه الوظائف هي:

أولاً وصف الظاهرة: ويقصد بالظاهرة الموضوع الذي يشغل الباحث أو العالم والذي يريد فهمه وتفسيره ومعرفة كنهه كما يقولون وتعتبر هذه الوظيفة أساسية للوظائف الأخرى بما تقدمه من معلومات قاعدية وصورة منظمة للظاهرة.

وتشير هذه الوظيفة إلى تجميع بيانات دقيقة عن «حقيقة الظاهرة كما هي في الواقع، بحيث أن الانسان يستطيع الاعتماد على صحة هذه البيانات من فهم المشكلة وتفسيرها واتخاذ ما يلزم من اجراءات حيالها.. ومن هنا يقدم العلم خدمة جيدة للانسان تريحه من عناء الجهل في مواجهة تلك الظاهرة. ان الانسان الجاهل أو الذي لا يعتمد على الأسلوب العلمي في فهم الظواهر من حوله يعتمد على الرأي الشخصي والعشوائية والارتجالية والمحاولة والخطأ في القرارات التي يتخذها لحل ما يواجهه من قضايا.

ويعتقد بعض الناس أن تقديم وصف علمي للظاهرة ليس بالوظيفة القيمة التي يفخر بها العلم.. إن هذا القول بعيد عن الصواب حقاً. أليس من الأفضل أن يسير الانسان في فهم أموره على هدى وبصيرة أم أن يسير في فهمها على التخبط أو الظن؟!.

مثلاً إذا أرادت أمانة الصحة أن تعرف عدد الاصابات بمرض رمد العيون في البلاد وذلك لكي تستعد لمواجهة هذه الاصابات ومنع العدوى، فإن أمانة الصحة لا تستطيع أن تضع خططها على مجرد الشائعات أو الآراء أو الظنون. ومن هنا فإن القيام بدراسة مسحية وصفية مقننة تبين حجم المشكلة، وابعادها السكانية والجغرافية والصحية يعتبر أمراً منطقياً وعملياً لأنه يساعد على:

١ ـ وضع خطة دقيقة لمواجهة الحالات في مناطقها بكفاءة عالية.
٢ ـ توجيه الامكانيات حسب الحاجة إليها حتى لا يكون هناك فاقد في الجهود الفنية.
٣ ـ التوظيف الفعال للأموال العامة بحيث يمنع حدوث الفاقد في المصاريف.
٤ ـ الاقتصاد في الزمن الذي تستغرقه أمانة الصحة في مواجهة المشكلة نتيجة التنظيم والتنسيق.
٥ ـ اطمئنان العاملين في هذه المواجهة إلى أنهم يعملون عملاً مفيداً منظماً يعرف هدفه بكل اتقان.

ولنأخذ مثالا آخر ، نفترض فيه ان جمعية الدعوة الاسلامية ارادت ان تعرف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عليها المسلمون كأقلية فى بلد ما غير اسلامى وذلك لكى تقوم الجمعية بتقديم المساعدة التى يحتاج اليها اولئك المسلمون . فإنه من الافضل للجمعية ان تستخدم العلم الذى يقدم لها صورة وصفية لهذه الجوانب بدلا من ان ترصد الجمعية الاموال والجهود على خطة قائمة على ظن بعض الافراد او اعتقاد بعضهم .

وهكذا الحال فى جميع العلوم فان اول احساس للمجتمعات بحاجتهم الى العلم يحدث اول ما يحدث فى رغبة هذه المجتمعات فى معرفة الظواهر من حولها . كما ان العلوم جميعها لا تستطيع ان تقدم وظائفها الاخرى « تفسير الظاهرة ، التنبؤ بالظاهرة ، السيطرة على الظاهرة » الا بعد ان تكون قد كونت وصفا علميا دقيقا على ما تهتم به من ظواهر فى دراستها .

ويستخدم كل علم حسب طبيعته وظروفه اسلوبه الخاص « وسائل جمع بيانات ، احصائيات طرق قياس .. الخ » فى تحقيق وصف علمى للظواهر التى تدخل ضمن اختصاصه .

(**ثانيا**) تفسير الظاهرة ، تأتى هذه الوظيفة كخطوة منطقية لوظيفة وصف الظاهرة ذلك انه بعد ان يتحصل الانسان على معلومات منظمة ودقيقة حول الظاهرة التى يدرسها « اى الاجابة عن سؤال ماذا هناك ،،، فانه يجد نفسه مشدودا الى مستوى اعلى من الفهم ، وهو رغبته فى أن يحصل على تفسير لما يجرى « اى الاجابة عن سؤال كيف يحدث ذلك ؟ » .

فاذا رجعنا الى المثال الذى ضربناه حول امانة الصحة واهتمامها بمرض رمد العيون فانه بعد ان تحصل الامانة على تقرير علمى يصف جوانب المشكلة من حيث مناطق العدوى ، عدد المصابين ، نوع الاصابات ، عمر المصابين ، .. الخ ، فان الامانة تصبح امام مطلب جديد وهو رغبتها فى معرفة كيفية حدوث المرض ، والعوامل التى تؤدى اليه ، وسبل التغلب عليه . أى أن المسئولين فى أمانة الصحة يطلبون من العلم ان يقدم لهم خدمة اخرى وهى تقديم تفسير للعلاقة بين العوامل الداخلة فى الظاهرة . ولذلك يكون مطلوبا من العلم فى هذه الحالة القيام بالدراسات والبحوث التى تشرح وتفسر لنا كيف يحدث المرض ؟ وماهى مسبباته ؟ ماهى آثاره ؟ ماهى طرق علاجه ؟ . وهكذا .

واذا رجعنا الى المثال الذى ضربناه حول جمعية الدعوة الاسلامية وحال المسلمين كأقلية فى بلد غير اسلامى ، فان حصول الجمعية على تقرير علمى يصف حال المسلمين هناك (رغم أهميته فى توجيه بصائر المسئولين فيها) يكون قد أجاب عن سؤال ماهو حال المسلمين فى ذلك البلد ؟ فقط . وحتى تقع الخدمات التى تقدمها الجمعية لأولئك

المسلمين فى مكانها الصحيح ، ومن أجل مواجهة الحاضر بكل كفاءة ، ومن أجل التخطيط للمستقبل ، فان الجمعية تجد نفسها محتاجة الى معرفة تفسير للواقع الذى عليه حال المسلمين فى ذلك البلد ، من حيث قانون الاسباب وعلاقتها بالنتائج . ولذلك ، فان العلم هو الوحيد القادر على تقديم التفسير الدقيق للأمر ، وهكذا تظهر الوظيفة الثانية للعلم .

وتجدر الاشارة هنا ، الى أن وظيفة تفسير الظاهرة تعتبر أهم وأخطر وظيفة يقدمها العلم للانسان فى أى جانب من جوانب الحياة الانسانية او المادية . ذلك أن ادراك واقع الشيء لايعنى بالضرورة فهم سره وتركيباته ومكوناته ، وبالتالى لايعنى بالضرورة تمكن الانسان من اخضاعه لارادته وسيطرته . ان حل اللغز الى خيوطه والعوامل التى تكونه ، والعمليات التى تحدث فيه ، أى الوصول الى تفسيره هو أهم عمل وظيفى يقدمه العلم الى البشر .

ولذلك تجد العلماء فى الجامعات ومراكز البحوث المتخصصة ، كل فى ميدان اختصاصه ، مشغولين بأداء هذه الوظيفة التفسيرية للعلم اكثر من انشغالهم بأية وظيفة أخرى . ذلك ان الانسان العادى لايصل الى المعرفة الصحيحة عن طريق الوحى والالهام ، بل يصل اليها عن طريق الاطلاع والمعاناة والبحث والتقصى والتجريب والاستفادة من جهد علماء الماضى والحاضر . كما أن أغلب النفقات المالية فى مجال البحث العلمى يتم إنفاقها عُلى تحقيق هذه الوظيفة التفسيرية . ذلك أنه كما يقولون « إذا عرف السبب بطل العجب » . ومن الأمثلة على وظيفة التفسير فى العلم معرفة كيفية تكون المطر ، وفيروس شلل الاطفال ، وأسباب التحلل الاجتماعى ، وتفجير الطاقة الذرية .

غير أنه يجب ان يلاحظ هنا بأن حظ العلوم سواء الطبيعية او الانسانية يختلف من حيث قدرتها على الحصول على التفسير المقنع الذى يقبل به علماؤها للظواهر التى تدرسها . فعلم الطب مثلا ، بالرغم من تمكنه من تفسير كثير من الأمراض ، لازال عاجزا عن تفسير ظاهرة مرض السرطان ، وعلم التربية لازال عاجزا عن تفسير بعض مظاهر التخلف الدراسى عند التلاميذ ، وعلم النفس لازال عاجزا عن تفسير بعض الامراض النفسية . ولاشك ان نفس الحكم يسرى على بقية العلوم الأخرى ايضا التى لديها صعوبات مماثلة فى تفسير كثير من الظواهر التى تدخل فى اختصاصها . ذلك أنه لو لم تكن هناك مشكلات لازالت تحتاج الى تفسير فى أى علم من العلوم لتوقف ذلك العلم ووصل الى غايته ، وهو أمر بعيد المنال لأمرين اثنين هما :

(١) أنه توجد مشكلات صعبة التفسير لازالت تواجه كل علم من العلوم .

(٢) أنه ما إن ينجح العلم فى تفسير ظاهرة معينة الا وتظهر تساؤلات جديدة تغرى العلماء والمجتمعات بمتابعتها وايجاد تفسيرات لها (من الامثلة لذلك علم الفلك ،

فالانسان لم يرض بالوقوف على القمر ، بل يحاول ان يصل الى المريخ والمشترى) . وهكذا فإن مسيرة العلم لن تتوقف الا بتوقف الحياة نفسها .

ويلزم التنبيه هنا ،الى أن عجز أى علم عن تفسير بعض الظواهر التى تدخل فى اختصاصه ، لايعنى الحكم على ذلك العلم بأنه ليس علما ، لان مسيرة العلم لاتتوقف ، ولذلك قد يصل العلم الى تفسيرها يوما . ثم إن المنطق النظرى والعملى يلزمانا بعدم تجاهل انجازات ذلك العلم فى خدمة المجتمع سواء فى مجال ماحققه من تفسيرات لكثير من الظواهر الاخرى ، أو فى ماحققه فى مجال الوظيفة الوصفية لكثير من الظواهر .

(**ثالثا** التنبؤ بالظاهرة ، وهى أنه بعد ان يصف لنا العلم الحال الذى عليه الظاهرة ، وبعد أن يقدم لنا التفسير لمكوناتها من حيث كيفية الاسباب والنتائج ، فاننا نجد أنفسنا كعلماء قادرين على توقع حدوث الظاهرة بدرجة كبيرة من الدقة . فعلماء الجغرافيا والمناخ قادرون على التنبؤ بالتغيرات الجوية ، والاطباء قادرون على التنبؤ ببعض الأمراض والأوبئة ، وعلماء الاجتماع قادرون على توقع أنماط معينة من السلوك الاجتماعى ، وعلماء التربية قادرون على توقع بعض المشكلات التعليمية سواء من جانب التلاميذ ، أو من جانب المعلمين او الادارة التعليمية ، وهكذا الحال فى بقية العلوم الاخرى .

ووظيفة التنبؤ بالظاهرة وظيفة تتولد بالضرورة عن أهم وظيفة للعلم وهى وظيفة التفسير للظاهرة التى شرحناها سابقا . ذلك أنه اذا عرفنا مكونات الظاهرة من حيث الاسباب والنتائج ، فاننا نستطيع بعد ذلك التنبؤ بحدوث الظاهرة عن طريق القياس بمعلوماتنا السابقة للمعطيات التى تتصل بتلك الظاهرة .

ووظيفة التنبؤ بالظاهرة هى التى يعتمد عليها التخطيط للمستقبل فى كل علم ، وكل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية والمادية . فالتخطيط فى الاقتصاد والاجتماع والصناعة والتعليم وغيرها هو عبارة عن تطبيق لهذه الوظيفة ، وهى ولاشك وظيفة مهمة . ذلك أن الانسان الجاهل يكون تحت رحمة الاحداث تحركه كيف شاءت ، حاله فى ذلك حال الانعام او الانسان البدائى . اما الانسان الذى تعلم وعرف كيف يستخدم التفكير العلمى فى حياته فإنه هو الذى يأخذ بزمام الموقف عن طريق التنبؤ بالاحداث واعداد اللازم لها . ولاشك ان التنبؤ بالظاهرة والتخطيط لها فيه توفير للجهد والمال والوقت وحسن الاداء .

ويلزم القول هنا ، بأن التنبؤ العلمى يأتى بعد تمكن الانسان علميا من وصف الظامرة وتفسيرها . فهو تحصيل حاصل بناء على معطيات مادية واستنتاجات وقياسات وتحليلات علمية هى فى مستوى البشر . ولذلك فالتنبؤ العلمى لاصلة له اطلاقا بمعرفة الغيب وكشف حجبه بدون مقدمات والتى اختص بها الله سبحانه وتعالى وحده .

(رابعا السيطرة على الظاهرة ، وهى كذلك وظيفة منطقية ، حيث أنه بعد ان يتحقق العلماء من وصف الظاهرة . وتفسيرها ، والتنبؤ بها ، فانهم يسخرون العلم لوظيفة اخرى وهى وظيفة التحكم فى الظاهرة من حيث احداثها او منعها من الحدوث ، او الاسراع فى حدوثها ، او التقليل من حدوثها . والعلم فى النهاية وسيلة لاغاية فى حد ذاته ، اذ ان هدفه خدمة الانسان وتمكينه من السيطرة على الكون .

فالطب سيطر على كثير من الامراض ، وتمكن من منعها من الحدوث ، وعلماء المناخ بدأوا قادرين على استمطار السحب أين يشاؤون ، وعلماء الزراعة تمكنوا من السيطرة على كثير من الآفات الزراعية ، وعلماء الوراثة تمكنوا من تهجين سلالات حيوانية ونباتية جيدة ، وعلماء التربية تمكنوا من تعديل كثير من سلوك التلاميذ لينجحوا فى عملية التعلم ويكونوا مواطنين منتجين كل حسب قدرته . كما استطاع الانسان أن ينزل بمركبته على القمر ، وأن يتناول افطاره فى طرابلس وغذاءه فى باريس وعشاءه فى موسكو .

هذه هى الوظائف التى يقوم بها العلم (أى علم) من أجل خدمة الانسان . وأى علم لايعتبر علما الا اذا استخدم الطريقة العلمية من أجل تحقيق بعض او كل هذه الوظائف .

المعرفة الانسانية والعلم

بعد ان تبين لنا مفهوم العلم ، واسلوبه فى البحث ، والوظائف التى يلزمه تحقيقها ، فاننا الآن نواجه سؤالا علميا وهو : هل ان كل المعرفة التى حصل عليها الانسان حتى اليوم هى معرفة علمية حسب المفهوم الذى قدمناه ؟ هل الأدب كالقصة والشعر والرواية والخواطر والافكار تعتبر علما حسب المفهوم العلمى ؟ ثم اذا كان هناك جانب او جوانب من المعرفة لاتعتبر علما ، فما هى هذه المعرفة ؟ ثم ماهى المعايير التى على ضوئها نصف هذه المعرفة بأنها معرفة علمية ، او أدبية ؟ كيف يمكننا تصنيف ماهو علمى وما هو أدبى ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة هى بيت القصيد فى هذا البحث ، وهو ماسنجيب عليه الآن ، خاصة وأننا قد قدمنا بما هو كاف لشرح مفهوم العلم ووظائفه .

معايير التصنيف

يمكن الآن القول بأن هناك معايير تساعدنا فى الحكم على مايقع بين أيدينا من معرفة وذلك من حيث تصنيفها علما أم أدبا . وهذه المعايير هى طريقة الدراسة ، أى الطريقة التى تم بها جمع المعلومات ومعالجتها وتحليلها والاستنتاج منها ، وكذلك تحقيق بعض او كل الوظائف الاربعة للعلم .

جدول تصنيف المعارف الانسانية

الصنف	الامثلة	ماذا تدرس	طريقة الدراسة	الغاية
العلوم الطبيعية	كيمياء ، احياء	المادة	الطريقة العلمية	تحقيق الوظائف الاربع
العلوم الانسانية	تربية ، اقتصاد	سلوك الانسان	الطريقة العلمية	تحقيق الوظائف الاربع
الدراسات الأدبية	القصة ، الخواطر	سلوك الانسان	التجربة الذاتية والذوق الشخصي	الاستمتاع والتنفيس والتامل

وكما يظهر من الجدول فإنه يمكن بناء على هذه المعايير تصنيف المعارف الانسانية الى الاصناف الآتية :

(1) العلوم الطبيعية ، وتشمل علوما مثل الكيمياء ، والاحياء ، وعلم طبقات الأرض ، والهندسة ... الخ ، حيث تدرس هذه العلوم الجانب المادي من الكون مثل جسم الانسان ، والتراب ، والعناصر المختلفة ، والنبات ، وتدرس هذه العلوم الجانب المادي من الكون باستخدام الطريقة العلمية ومن أجل تحقيق الوظائف الأربعة للعلم . ولاترجع تسمية العلوم الطبيعية علوما لكونها تدرس المادة ، بل ترجع الى الطريقة العلمية التى تستخدمها فى اسلوب بحثها . فهى علوم لكونها تستخدم الطريقة العلمية وليس لكونها كيمياء ، أو أحياء ، أو جيولوجيا . إذ أنه لو دخل انسان الى معمل الكيمياء واخذ يخلط بصورة عشوائية هذا الحامض بذلك الحامض ، وقال لنا بأنه عالم ويمارس علما لقلنا له بأن ادعاءه غير صحيح . ذلك لأنه يفتقر الى استخدام الطريقة العلمية فى مايفعله وفى تفسير مايتوصل اليه من نتائج .

(2) العلوم الانسانية ، مثل علم التربية ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الادارة حيث تدرس هذه العلوم سلوك الانسان فى التعلم ، والتكيف النفسي ، والتفاعل الاجتماعى ، والتملك والانتاج . ولاترجع تسمية هذه العلوم علوما لكونها تدرس سلوك الانسان ، بل ترجع الى الطريقة العلمية التى تستخدمها فى اسلوب بحثها . فهى علوم لكونها تستخدم الطريقة العلمية من أجل تحقيق الوظائف العلمية ، وليس لكونها تتناول مظاهر حياة الانسان النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

ووفقا لهذه المعايير فاننا لانقبل بعلمية مايكتب حول سلوك الانسان الا اذا كان ذلك مشفوعا بالطريقة العلمية من حيث جمع البيانات وتحليلها . فكتاب « اللقيطة » للكاتب محمد عبد الحليم عبد الله لايعتبر معالجة علمية لنفسية اللقيطة ، وكتاب « الايام » لطه حسين لايعتبر معالجة علمية لنفسية الكفيف ، وذلك لافتقارهما الى الشروط اللازمة فى الطريقة العلمية . اننا وفقا للطريقة العلمية نستطيع ان نطلب البراهين والادلة ،

. ونستطيع ان نقول بأن هذا صح أو خطأ حسب المعلومات العلمية المتوفرة ، والحكم بيننا فى النقاش هى الطريقة العلمية والتحليل العلمي . إن هذه الشروط لاتتوفر فى الكتابين المذكورين ، والمؤلفان لايدعيان أن ماكتباه علما ، بل يعلنان أنهما اديبان يكتبان أدبا .

(3) الدراسات الأدبية ، وتشتمل على خواطر المفكرين والكتاب والادباء كأدب الرحلات والقصص والروايات والخواطر والانطباعات والشعر والنثر ، وغيرها مما يتناول جوانب حياة الانسان وصلتها بالكون من ناحية وجدانية تأملية ، ولأجل الاستمتاع الذاتى عن طريق التأمل والتذوق والتنفيس . فالدراسات الأدبية تتناول سلوك الانسان وصلة الانسان بهذا الكون الكبير ، ولكن ليس باستخدام الطريقة العلمية ، بل بالاعتماد على التجربة الذاتية والذوق الشخصى للكاتب ، وما يمليه عليه خياله واحساساته وتأملاته . إن كتابي « اللقيطة » و « الايام كتابان ادبيان لانهما يقومان على التجربة الذاتية والذوق الشخصى وليس على الطريقة العلمية . اننا لانستطيع ان نقول بأن أحمد ابراهيم الفقيه أخطأ حين وضع كتابا أسماه « البحر لاماء فيه » لان البحر أكبر من اليابسة . ذلك لأن احمد ابراهيم الفقيه كتب ادبا ولم يقدم علما فى قصته « البحر لاماء فيه » . انها احاسيس انسان فى موقف معين .

والدراسات الادبية بهذا المعنى غير قابلة للمحاججة العلمية لانها ليست علما ولاتخضع لمقاييسه . انها آراء انسانية فى قضايا الانسان وحياته متحررة من قيد الطريقة العلمية تصب انفعالات الاديب وتعكس تأملاته ، وما على القارىء له الا ان يقبلها او يرفضها من باب انسجامها مع خبرته الذاتية وذوقه الشخصى وحسه الفني .

ولايعنى هذا التصنيف وفقا لهذه المعايير التقليل من أهمية الدراسات الادبية فى الحياة . ان كل مايعنيه هو ان الدراسات الادبية لسلوك الانسان شىء ، والعلوم الانسانية التى تدرس سلوك الانسان شيء آخر مختلف تماما . وانه لاصحة للتعميم الخاطىء الذي يقوم به بعض الناس حيث يصفون كل مايتناول دراسة سلوك الانسان بأنه ادب ، وكل مايدرس المادة الطبيعية بأنه علم . ان الطريقة العلمية هى ابراز الحقيقة دون انفعال ، بينما الدراسة الادبية هى استخدام الانفعال لفهم ظواهر الحياة من نافذة المشاعر والوجدان .

أخطاء فى مفهوم « الأدبي »

يقع كثير من الطلبة وحتى بعض الاساتذة فى خطأ نسبة العلوم الانسانية الى الدراسات الأدبية ، وتسمية الجميع بالمواد الأدبية ، أو القسم الأدبى ، أو الأدبيات . وهذا يرجع الى اسباب كثيرة أهمها :

(1) عدم استيعاب الشخص لمفهوم « العلم » و « الطريقة العلمية » كطريقة تفكير وجمع بيانات وتحليل وموضوعية . وبذلك تجده لايفرق بين الحقيقة والرأى ، وبين التوثيق العلمي والتأمل الذاتى .

(2) وضع المقررات التى تدرس سلوك الانسان فى المدرسة الثانوية فى تخصص مميز اسمه « القسم الأدبى » جعل الطلبة يعتقدون بأن هذه العلوم هى عبارة عن دراسات ادبية تقوم على الخيال والتأمل والذوق الشخصى والخبرة الذاتية .
(3) تسمية الكلية التى تتم فيها دراسة سلوك الانسان « بكلية الآداب » تجعل الشخص البسيط يعتقد بأن كل العلوم الانسانية هى دراسات أدبية مادامت تحتويها كلية اسمها كلية الآداب .

(4) ان الطلبة العرب الذين درسوا فى الغرب ترجموا Liberal Arts الآداب الحرة ، ترجمة حرفية قاموسية وعكسوا عليها من تراثنا (الأدب العربي) ماجعلهم يعتقدون خطأ بأنه مصطلح يطلق على كل الدراسات التى تهتم بسلوك الانسان . فهم ألبسوا المفهوم ثوبهم اللغوي ، وتعلقوا بالثوب دون روية لدرجة نسوا فيها أن ينظروا الى ماتحته .

فنحن لورجعنا الى قاموس اللغة الانجليزية مثلا لوجدناه يقول بأن الآداب الحرة Liberal Arts مشتقة من الأصل اللاتينى Artes Liberales ومعناها الفنون الرفيعة . وكان يدرس هذه الفنون فى عهد الرومان الأحرار Freemen فقط (Liberi) . وتضم هذه الآداب الحرة دراسة اللغة ، الكيمياء ، الأحياء ، الرياضيات ، التفسير ، التاريخ .
كذلك هناك من يرى بأن مصطلح الآداب الحرة Liberal Arts جاء لتمييز العلوم الأكاديمية Academic Disciplines مثل الكيمياء ، والفيزياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والتفسير وما شابهها من علوم تستخدم العقل والمنطق والقياس النظرى والتحقق العملي ، تمييزها عن تلك الدراسات والعلوم والفنون الآلية Mechanical Arts والتى نسميها اليوم بالعلوم الفنية أو التعليم الفنى المهنى مثل الهندسة ، وكل مايتعلق بقوانين الحركة والآلة والحرف الصناعية . [1] .

كذلك تشير كلمة Literature فى اللغات الاوربية الى المادة المكتوبة فى اى علم من العلوم . ولذلك نجد الباحث حتى فى العلوم الطبيعية يقوم بتخصيص جزء من بحثه يعنونه Review of Literature ومعناه الحرفي « مراجعة الأدب » ويقصد بذلك مراجعة ماسبق وكتبه الباحثون السابقون عليه حول موضوع البحث . فهو لايقصد بعبارة « مراجعة الأدب » الأدب كما نفهمه نحن .

وهكذا نخلص الى النقاط الآتية :

(أ) ان كلمة العلم تشير الى طريقة وعملية جمع المعلومات وتوظيفها توظيفا معينا ، ولاتشير الى طبيعة المحتوى الذي يتم استخدامه .
(ب) ان كلمة « الادب » كما هى مستخدمة فى الوطن العربى لاصلة لها بما تعنيه عبارة الآداب الحرة Liberal Arts كما هى مستخدمة فى الدوائر العلمية عند الغرب الذي تأثرنا به فى أغلب مفاهيمنا العلمية المعاصرة .

ج ان هناك ثلاثة تصنيفات ممكنة لما هو موجود من معارف انسانية هى العلوم الطبيعية ، والعلوم الانسانية ، والدراسات الادبية ، وانها كلها مفيدة للانسان فى حياته الدنيا . فالعلوم الطبيعية تدرس الجانب المادي من الكون بالطريقة العلمية ، والعلوم الانسانية تدرس سلوك الانسان بالطريقة العلمية (وتعرف أيضا بالعلوم السلوكية) ، والدراسات الأدبية التى لاتتبع الطريقة العلمية بل تستخدم الخبرة الذاتية والذوق الشخصى للكاتب نفسه فى تأمله وتحليله لما يراه من سلوك ومظاهر حياتية تتصل بالانسان والكون .

انتهى .

(1) عبد الله العمر ، ظاهرة العلم الحديث : دراسة تحليلة وتاريخية ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، 1983 م .